

انكسارات الأنثى في قصص قافلة العطش*

بقلم: سمير الشريف/الأردن

محارة الذات فضاء تهيم فيه أنثى "قافلة العطش" بحزنها الشفيف الجميل المعجون بوهج الانتظار وقلق الخوف على عمر يزوب بنيران الوجد وحصار العزلة .

قلق الجمر الذي يحرقنا ألما ،أملا وعذابا يلبس الانتظار ويجذر الوحدة ويمعن في رحيل الاغتراب خلف سراب يلمع فوق كثبان صحراء الجسد وإعادة الروح للجنة الباردة ،إنه الانطفاء الذي يموسق شظايا روحها التي تتأثرت في البعيد ، والالتياح الذي ينخر عظام الأمل للخروج من سجن الجسد وإسمنت جدران القهر .

أنثى تتبت الغربة في صحاريها ، لا تملك غير متابعة الشباك ،تتسج الأيام حولها أطياف قلق ،تقضي الليل حاملة ، وفي الهزيع الأخير تتعاطى الشعر حلما بشط أمان وصدر دافئ في ببداء عمر صدئت عقارب ساعته ،وغربة فرّخت عتمة وجفاف صدر غادرته قطرات الندى .

رفعت راية البوح ، بحثا عن مستحيل اللاجدوى ،ومرور الزمن يكبر الحيرة ويحوّل الأمل نعشا كثير الفضاءات .

أعيائها السهر وأقضت مضجعها الوحدة التي يحملها سواد الليل وزحف الثواني ليس فيها غير تكات ساعة تتعى رحيل العمر .

متقلبة بين جمار صيف القهر وزمهرير شتاء الوعد وصافرة قطار ودّع محطاته بلا عودة .

هل منكم من تذوق جمر الوجد ومسه جنون التوحد وصقيع اللاجدوى؟

هل منكم من قضى سني عمره محلقا في فضاءات تعب، وأمل بلحظات يأوي فيها لحضن الهدوء وطمانينة الفرحة؟

تخرج من سجن الجسد، تتباعد عن يحاصرها، تحترق في أتون الحياة، تعاقر الحلم، تهفو لروح رفرفت يوما على أيامها حين يشتد لفح الوجد وتعصف رياح الوحدة فتتضمني أن ترتمي على ورود صدره دونما انتباه لكل الحواجز .
هل يأت أم يظل أمنية تمنحها لذة الدفء الكاذب؟

لماذا لا يعود من خلف جدران الوهم، يتلو الأشواق ويحملها إلى البعيد؟
تهرب إلى الكتابة، تحوّل الأوراق غيما وبساطا من حرير، ذبل الجسد، الريح تدق بوابات العمر، تناديه : القصيدة أنت، ومن أرتجي البوح للبحر في عينيه.

هل الكتابة حالة تقلّب على المبدع مواجهه أم عذابات النفس في حالة بحثها الدائم عن مرفأ ترسو إليه؟
إنها لعبة الجدل الرائع بين الذات والموضوع، أوليس معظم الألم من مستصغر الأمل؟

لماذا الأرواح الحزينة من يعطي الناس الفرحة؟
لماذا يتلهى الخلق بأحزانهم و يمطر كل بطريقته؟
...كم هم عطشى أولئك الذين لا يعرفون أنهم عطشى .. ؟ العيون العطشى فقط من ترى آثار قافلة العطش على رمال الحرمان...
هاتان جملتان لا يمكن العبور لنصوص "قافلة العطش" دون إعتادهما مفاتيح لمجمل الفضاء السردي، حيث تكرر العطش إحدى وعشرين مرة والصحراء أربع مرات غير مشتقات (الحرمان والانتظار والرغبة وأتمنى وأحلم) .
من خلال قصصها التي انتشرت على فضاء ستة عشر نصا، تقتحم هدوؤك لغة شعرية وتستوقفك البطولة الرئيسة للزمن، ووقفه الساردة بكل تجليات الأنثى

أمام ذاتها ،ترصد علاقة الإنسان -مطلق الإنسان بواقعه ،تستجلي مظاهر
استلاب الأنثى على تنوعها بكلمات ترسم ظلال معانيها بدقة .
تستوقفك نصوص "قافلة العطش" لاعتبارات كثيرة في المقدمة منها الإحساس
الأسر المغمس بالقلق العميق ،ناهيك عن جرأة في كشف جراح الأنثى
بمعالجات عاطفية ،طارحة الحب كخلاص أول وأخير .
تمتطي "سواء شعلان"جواد الدهشة ،تمطر هجيرنا بندى قطرها ،تغوص في
كيمياء الإنسان فتتفوق في تدفقها وإنزياحاتها الجميلة ، مؤكدة أن الكتابة نافذة
مشرعة بحجم الحلم وأن القدرة على الإبداع لا تعني إلا القدرة على العطاء .
تتأرجح شخصيات "قافلة العطش"بين المعقول والفنتازي ،بين ضرورات الجسد
وأشواق الروح وخفايا اللاشعور ، بسرمد مخاتل يشارف حدود النص المفتوح الذي
يندغم فيه الوهم بالحلم بالحقيقة !!
انطلاقا من الإيمان بالحب خلاصا وجوديا للإنسان ، تعلي نصوص "قافلة
العطش" من أهمية هذا الجانب مقيمة على وجوده عالما من النقاء وحالة من
التوازن والتوافق والتكيف والإحساس بالذات وقيمة الوجود وتناغم المخلوق
البشري مع ما يحيط به .
أنثى "قافلة العطش" تعلن عن جوعها للحب وظمأها وضياعها النفسي
وتلاشيها ككيان بشري بسبب هذا الفقد.... أريد حبا واحدا يملأ ذاتي ، يهصر
أشواقي ،يسكن ما بيني وبين جسدي ،حبا يقتلني من أحزان جسدي ووحدة
ساعاتي ، حبا قويا جبارا لا يعرف الألم ، يمسك بتلابيب الروح ويخلق
حشرجات دامية في النفس...ص 21، لهذا ترى أنثى المجموعة ضرورة وأهمية
توفر الحب حتى للجماد ،وها هي تؤنسن فزاعة الحقل ،تبتث فيها الحياة فتجعل
منها أنثى يعتمرها فقد الحبيب ، تعيش لحظاتها أملا يدق نافذة روحها يوما .

على اختلاف وعيها وتنوع تجربتها ،تظل أسيرة الانتظار ، يقتلعها عطش جارف لنصفها الضائع ووحدتها النفسية وكيئونة وجودها، لتظل في حالة حنين جارف للحظة عشق.

لا غرابة أن يأتي سرد النصوص أسيان،معجون بالحرقة مغمس بألم الفقد ، تتاجي الأنثى الإله كي يهبها حبا واحدا فقط ، ليظل السؤال الموجه مشرعا على فضاء التمني ، ولماذا هي مسجونة في جسد الأنثى البغيض،تسعى للتححر ،تتمنى لحظة حب، رجلا يحبها دون نساء الأرض ،للتحرر من عبوديتها وأسرها لشيء غامض يسمى زوجا،يفتض جمال واحتها ، يفتريها ، يطاردها فرسا برية لا تدرك ، لنلاحظ عمق الشعور بالفقد ومنسوب الجرأة المرتفع عند ملامسة المفردة المباشرة حد الكشف لحاجة الأنثى للرجل"قالت بتعب مهر ركض حتى آخر الدنيا : أنا عطشى".

نقف على آثار نظرة الحب في عيون امرأة خبرت معنى لذة الانتظار واحتقرت بجمرها ،امرأة متزوجة وأم لأطفال تمثل للزوج احد مقتنياته ، وهناك على الضفة الأخرى من القلب من يطل من نافذة العشق ، قلب كيائها ،حدثت عنه الصديقات بلذة مدفونة في غياهب الروح ، شكته لعينيهِ الناعستين ولسنواتها القاحلة ، وإن ظلت تهمس في سرها " النوافذ تعشق الانتظار " .

عاشت في صراع :هل تغلق النافذة ؟هل تند الانتظار؟ خرجت من الصراع منتصرة لمشاعرها ، لتغدو من جديد ، المرأة التي افنقذتها منذ زمن بعيد ،عادت تسمع لهاث رجل في أذنيها ، عاد جسدها يسترد بعض رشاقته ، تسمع إيقاعه، قررت أن تشتري الملابس الأنيقة ، تعطرت ،سّرحت شعرها ،صبغت أظافرها ،عاد لها رونق عينيها ونداوة بشرتها ،عادت لها ذاتها وفي كل ظهيرة تشرب قهوتها مع فتى النافذة ،وكم تمنى لو تقترب اللحظات وتتجاوز الأرض حد الالتصاق لتقطع أمتارا قريبة تفصلها عن حديقة جازها الوسيم.

امرأة صدقت مع نفسها ، لا تخفي ما تحس به حتى لو تجاوزت خطوط
الجرأة، اقترب منها ،ضمها ،هذا ما انتظرت وتأملت وتخيلت، هذا الجسد ينتظر
من تسعة أعوام ،حتى ذلك الزوج لم يستطع احتلال هذا الجسد....لقد كنت في
كل ليلة لك ومعك ،كل ليلة تركت الباب مفتوحا ليدخل طيفك الساحر ليضمني
بجنون.....أنا امرأة طليقة تنتظر أنك أنت تحديدا ،أللجنة، أنت لا تعرف شك وحيرة
وصبر امرأة تنتظر رجلا من ألف عام....هل سأموت ؟ ليس الآن، وقبل
الوصول إلى حضنك. ص 83.

برغم ما يعكسه النص من وضوح وإيغال في الجرأة، إلا انه يعكس تمزق الأنثى
بين الزوج الشيء والحبيب الأمل .

في المساء ،تدلف لفرش آخر ترك صاحبه الباب مفتوحا ، يصفها الرجال
بالتفاعل والاستكانة اللذيذة والشهوة العارمة ولهذا يعشقونها ،أما هي فتجد من
تحب في جسد كل رجل ، تغمض عينيها، ترهف حواسها وتحلق في سماء
لامعة ثم تسقط ليتلقفها حضن من أحبت باشتها، تتفرس ملامحها في مرآتها
لعلها تجد بصمة رجل على وجهها تشبه بصمة فارسها .ص 77.

الأنثى التي يحرقها فقد الاستكانة لروح رجل يملأ عليها حياتها ويعيد
توازنها ،غير متصالحة مع زمنها وذاتها ،تأرجح في مواقفها، تتقلب في
فراشها،تبتسم بسخط وبلا معنى وهي ترقب عقارب ساعة المنبه تقترب من
الثامنة صباحا، لأول مرة تحس بأن هذه العقارب تربطها بدولاب زمن جهنمي لا
يفتأ يغطيها كل لحظة في مرآة عذاب سخط وذكرى مرة.

ليس غريبا على من فقد الحب أن يهرب بحثا عن التوازن النفسي في الفنتازيا
والغرائبية والأسطورة أملا بوجود أنيس أو بصيص نور ، ولو تمثل في طيف
امرأة دموية ، وبث الحياة والشعور في جماد ليجعل منه يطلا وشخصية من دم
لحم ،كما البنطال في قصة"الجسد" أو التمثال في قصة"امرأة استثنائية" أو
الرصد والكنز في قصة"الرصد".

بالتوظيف المتقن لضمائر السرد التي استخدمتها القاصة بنجاح ، وبالحب
كمعادل وجودي، يتغير الرجل في نظر المرأة وتتغير المرأة داخل إحساس
الرجل، هو لم يكن رجلا تجذبه امرأة ، كان نفسا تتذوق نفسا، أما هو فقد رأى
في عينيها حديث طويل، امرأة لم يتسعها العقل فهربت إلى الجنون.
من حق المرأة أن تعيش سعادة قلبها، تنتظر من يخطفها ويقيدها في قلعة ،
يجبرها على حبه، فهل تخشى الحب رغم أنها تتمناه ؟
حالة الوجد التي تتلبس الأنثى وضياها بفقد نصفها الآخر أوصلتها لحالة من
هذيان التمني أن تجده مندسا في فراشها، ولعذابها بالبعد عنه وتناثيه
عنها، تبحث عن مخرج لأنوثتها المأسورة في قفص تمنياتها ورغباتها الدفينة،
لذلك لا تنفك باحثة عن وسائل تعلن بها عن أنوثتها وكم تمنى لو أن حفلة تقام
لهذا الغرض علها تجد فارسها الذي يطفئ بها صهيل خيوله البرية.
اشتعالات الروح، البوح الدفيء الاختزال الجميل لأوجاعنا، ضمير الأنا العذب
الذي ينعش فينا حميمته الخاصة ، حضور الشخصي والغرائبي ، تراجيديا
الحياة والوجود، الصدق التعبيري، خصوصية التجربة ، قابليات التلقي ، الدهشة
الجاذبة ، كل ذلك مس الجوهري فينا وجعلنا ندرك أننا مهما تسقطنا آهات
الآخر ورصدنا أوجاعه وأسطرنا غير الممكن وغُصنا داخل نبض الإحساس
فيمن حولنا، إلا أننا في النهاية لا نكتب إلا جرحنا، ولا نبحت إلا عما يروي
عطشنا، لتظل الكتابة فينا وجع الحاضر وجمر الماضي واحتراق المستحيل
شوقا لوجه أحببناه وظل يختفي داخلنا وإعادة لمزيد من الأسئلة التي تسكننا.

* سناء

شعلان : قافلة العطش، ط 1، بدعم من امانة عمان الكبرى، دار الوراق للنشر
والتوزيع، عمان، الأردن، 2006.

